مكية الجزء الثلاثون سورة النازعات آياتها ٤٦

سُورَةُ النَّازِعَاتِ، سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وهي مقررة لما يذكر في السور المكية من البعث والمعاد، ونحو ذلك من القصص الذي قصه الله على محمد ﷺ؛ تثبيتا لأمره وتنويها لفضله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ هم الملائكة ينزعون أرواح الكفار، فيأخذونها من تحت كل شعرة وعصبة، فإذا ما قاربت من الخروج ردوها إلى مكانها، ثم ينزعونها بشدة وهكذا؛ لزيادة عذابه، فَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى جِنَازَةٍ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْقَبْرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَهُوَ يُلْحَدُ لَهُ، فَقَالَ: «**أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» ثَلَاثَ مِرَارٍ ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَنَزَّلَتْ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ كَأَنَّ عَلَى وُجُوهِهِمُ الشَّمْسَ، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كَفَنٌ وَحَنُوطٌ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، حَتَّى إِذَا خَرَجَ رُوحُهُ، صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ قَالُوا: رَبِّ عَبْدُكَ فُلَانٌ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى**» قَالَ: «**فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللَّهُ** عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، «**فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، ثُمَّ يَأْتِيهِ آتٍ حَسَنُ الْوَجْهِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِكَرَامَةٍ مِنَ اللَّهِ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، كُنْتَ وَاللَّهِ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، بَطِيئًا عَنْ**

مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا كَانَ مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللَّهَ، أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ هَذَا، فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي، فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، فَانْتَزَعُوا رُوحَهُ، كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ الْكَثِيرُ الشُّعْبِ مِنَ الصُّوفِ الْمُبْتَلِّ، وَتُنْزَعُ نَفْسُهُ مَعَ الْعُرُوقِ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ، إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَإِذَا عُرِجَ بِرُوحِهِ، قَالُوا: رَبِّ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ عَبْدُكَ، قَالَ: أَرْجِعُوهُ، فَإِنِّي عَهِدْتُ إِلَيْهِمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ آتٍ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِهَوَانٍ مِنَ اللَّهِ، وَعَذَابٍ مُقِيمٍ، فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللَّهُ بِالشَّرِّ مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، سَرِيعًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَجَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا، ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»(١).

وقيل: بأنه نزع القوس، وقيل: النجوم، وقيل غير ذلك، والمعنى الأول عليه الجماهير.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ قيل: الملائكة تنشط الأرواح، وقيل: المراد بها أرواح المؤمنين، فإنها تنشطها كما يفك وينشط العقال، وقد تقدم في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بيان ذلك.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا﴾ الملائكة، يسبحون في الآفاق بتصريف الأمور التي أوكلها الله عَزَّوَجَلَّ إليهم.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾ أي: الملائكة يسابقون بنزول الوحي، وقيل: سابقوا إلى الطاعات، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦]، وفي كل ما تقدم خلاف، ولكن الصحيح ما سبق.

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ هم الملائكة إجماعًا، جعل الله إليهم تدبير شؤون العالم العلوي والسفلي، ولا يخرج عن تدبيرهم الذي أوكله الله إليهم شيء؛ وقد سخر الله لهم من القوى ما يقومون بما أوكل إليهم، وهذا القسم متعلق بالإخبار بيوم القيامة، وقيل: هو إخبار عن الملائكة الذين أوجب الله علينا الإيمان بهم، فالإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ

(١) أخرجه أحمد (١٨٦١٤).

﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٨٥]، في آيات كثيرات.

وهم خلق عظيم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**»(١)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ رِجْلَاهُ فِي الْأَرْضِ وَعُنُقُهُ مَثْنِيَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ رَبَّنَا**» قَالَ: «**فَيَرُدُّ عَلَيْهِ مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا**»(٢)، وقد «**رَأَى النَّبِيُّ ﷺ جِبْرِيلَ، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ**»، قد سد بعظم خلقه ما بين السماء والأرض(٣).

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ أَيْ: النفخة الأولى حيث ترجف الأرض فيموت من فيها، ويهلك من عليها ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ النفخة الثانية في الصور التي يقع بها البعث والنشور ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١﴾ [يس:٥١]، يخرجون مسرعين إلى عرصات القيامة.

وقد جاء حديث من طريق عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ**»(٤)، وابن عقيل ضعيف.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ أَيْ: قلوب الكفار يوم القيامة حين يخرجون من الأجداث سراعا، قلوبهم واجفة، ذابلة، خائفة؛ بسبب ما عاقرته من المعاصي في الدنيا والله المستعان.

﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ مرفوعة إلى السماء، وأفئدتها هواء؛ لشدة الخوف والحال، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨﴾ [القمر:٦-٨]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ بعد أن أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بما سيقع يوم القيامة يقول: هؤلاء

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)، والحديث في «الصحيح المسند» (٢٤٨) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٨١٣) واللفظ له، والطبراني في «الأوسط» (٧٣٢٤).
(٣) متفق عليه، البخاري (٣٢٣٢، ٣٢٣٤، ٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٤، ١٧٧).
(٤) أخرجه أحمد (٢١٢٤١)، والترمذي (٢٤٥٧).

الذين تدعوهم يا محمد إلى الإسلام والإيمان بالبعث والنشور وينكرون البعث ويقولون متعجبين ومستنكرين لذلك: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ أَيْ: سنخرج من قبورنا؟! فالحافرة القبر.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ مرارًا أن الإعادة ليست بأصعب من البداءة: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان:٢٨].

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ وَقُرِئَ: «نَاخِرَةً»، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ: أَيْ بَالِيَةً. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَهُوَ الْعَظْمُ إِذَا بَلِيَ ودَخَلت الرِّيحُ فِيهِ[1]. اهـ.

فيقولون أنبعث بعد أن نكون عظامًا جوفاء تسفها الريح، ليس فيها مخ، ولا رطوبة، ويسهل كسرها، كما جاء عَنْ خَبَّابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جِئْتُ العَاصَ بْنَ وَائِلٍ السَّهْمِيَّ أَتَقَاضَاهُ حَقًّا لِي عِنْدَهُ، فَقَالَ: لاَ أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقُلْتُ: «لاَ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ»، قَالَ: وَإِنِّي لَمَيِّتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: إِنَّ لِي هُنَاكَ مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم:٧٧][2].

وجاء عَنِ الْمِقْدَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**أَخَذَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ عَظْمًا فَفَتَّهُ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبٍ لَهُ: أَتَرَى اللَّهَ يُحْيِي هَذِهِ وَهِيَ رَمِيمٌ. وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾** [يس:٧٨]، **فَلَزِمَ الْحَقُّ بِمَنْكِبِهِ**»[3].

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أَيْ: إذا كان هذا الأمر سيقع فرجوعنا إليه سيكون حال الخسارة.

وفعلًا أنهم سيرجعون وأنهم خاسرون ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]، خسارة ولا أكبر منها، خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر:١٥].

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا سهولة ما تعاظموه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ أَيْ: فإنما هو أمر من الله لا يُثنى تأكيدًا لسهولته، فينفخ في الصور نفخة واحدة وإذا جميع المخلوقات قد قامت من موتها، ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥).

(٣) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٣/ ٣٨٠).

قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر:٦٨] من القبور.

﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أي: ظاهر الأرض، أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٨-٥٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [طه:١٠٧]، فإنما هي نفخة واحدة فإذا بالناس قد برزوا على ظاهر الأرض، وقيل: الساهرة جبل، وقيل: بيت المقدس، وقيل: الشام، لكن المعنى الأول الذي عليه جماهير العلماء.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد ﷺ واعدًا له بالنصر والتمكين بما يقصه من قصص من سبقه من الأنبياء والمرسلين حيث مكنوا بعد ضعف: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ أَيْ: قد أتاك حديث موسى في سور كثيرات وآيات بينات أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن هذا النبي الكريم أنه أرسله إلى فرعون ذلك المجرم الأثيم، فحفظ الله موسى ونصره، وهذا دليل على حفظ الله وكلاءته لأنبيائه ورسله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن إرساله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فرعون: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه:٤٣-٤٦]، فحفظه الله من فرعون، في صغره وكبره، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [القصص:٧-٩].

﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أي: بصوت عالي مسموع، قال تعالى: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم:٥٢]، وبهذه الآية وغيرها يثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة الكلام، وأنه يتكلم متى شاء، وكيف

شاء بما شاء بحرف وصوت، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١] وقد أخبر الله في آيات كثيرات عن هذا النداء وما قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤].

﴿بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ بالواد المعظم، واسمه طوى، ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بالرسالة ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي: تجبرًا، وتمردًا، وعنادًا تمادى في كبره وطغيانه، وظلمه، وجبروته سواء، في باب الألوهية حيث أدعى أنه الرب الإله، وفي باب الظلم حيث ذبح بني إسرائيل واستعبدهم وقهرهم.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في سورة طه: أنه لما قال له: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [طه:٢٥-٣٥]، فسأل الله عَزَّوَجَلَّ أسباب النصر والعزة، ومن أعظمها شرح الصدر؛ لأن الصدر إذا ضاق لم يَبِن بما فيه، وعجز الإنسان عن تحمل المشاق، ولم يكن من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا امتثال أمر الله ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ذهب، إلا أنه طلب أن يكون له وزير: أخ يسانده، ويعينه، ويستأنس به، فالإنسان وحده ليس بشيء.

تأبى الرِّماحُ إذا اجتمعن تكسرًا ❁❁❁ وإذا افترقن تكسرت آحادًا

والنبوة والرسالة شأنها عظيم، حيث يبعثهم الله إلى أقوام يخالفون في جميع الدين، فيُسفِّهون أحلامهم وآلهتهم، ويدعونهم إلى إفراد الله بالعبادة، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَتْنِي رِسَالَةٌ مِنْ رَبِّي فَضِقْتُ بِهَا ذَرْعًا وَرَوَيْتُ أَنَّ النَّاسَ سَيُكَذِّبُونَنِي، فَقِيلَ لِي: لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيُفْعَلَنَّ بِكَ**»(١).

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ اذهب الى فرعون فقل له: يا فرعون! هل لك في طريق الزكاة، تزكي نفسك بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وتوحيده، فتزكوا في الدنيا والآخرة فإن النفس إذا لم تزكَ بالتوحيد والطاعة ليست بشيء، كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس:٩-١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الأعلى:١٤].

وبعث الله الرسل لهذا المقصد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٩].

---

(١) أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» (٧٦).

والزكاة هي فضل من الله على عباده، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١].

﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أي: أدلك وأرشدك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ إلى الطريق الموصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيقع منك الخشية والخوف من الله عَزَّوَجَلَّ، فتبادر بالأعمال الصالحات والخشية تقع بالعلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، إذ أن الخشية خوف يشوبه تعظيم.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أَيْ: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أرى فرعون آية تدل على صدقه، وقد دعاه بالمقال: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ ثم دعاه بالفعال: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ وهي الحية المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء:٣٢-٣٣].

والسبب في أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل هذه الآيات لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ أن قومَ فرعون كانوا يتعاطون السحر، فجاءتهم آية من جنس فعلهم، إلا أنها آية حقيقية وليست بتخيل ولا تمويه، وعند ذلك استكبر فرعون ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ رد هذه الآية، وعصى ربه، وتمرد على شرعه ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ كبرًا وعنادًا، حيث أرسل في المدائن حاشرين طالبًا أن يأتوه بكل سحار عليم، ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف:١١٣-١١٤]، ووعدهم أن يرفع شأنهم رشوة لهم من أجل أن يقفوا أمام الحق وأهله، فأبى الله عَزَّوَجَلَّ، وانظروا إلى هذا الوصف الدقيق ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ لما أعرض عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ الشرعية وصفه الله كالمدبر الذي يجري، وهذا يحصل من كثير من الناس اللئام، إذا وقع عليه شيء وإذا به يولي ظهره ذلة وحقارة.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ أَيْ: جمع قومه، ونادى السحرة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه:٥٦-٦٠].

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ

﴿مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١﴾ [الزخرف:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، وهذا القول منه كذب وزور؛ فإنه يعلم أنه مخلوق ضعيف يحتاج إلى الأكل والشرب والزوجة والحمام، ثم يزعم أنه الرب الأعلى الذي على عرشه استوى! تعالى الله عن هذا القول القبيح، فإن الرب الأعلى هو الله ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى:١]، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾ [الليل:٢٠]، وقد ذكر العلماء: أن فرعون إنما قال هذه المقولة من باب المكابرة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل:١٤]، وهو يقول: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، وهو يعلم كذب نفسه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن موسى: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ١٠٢﴾ [الإسراء:١٠٢].

فعند أن تكبر وعتى وتجبر وأبى الانقياد لشرع الله عَزَّوَجَلَّ أتاه الله من حيث لم يحتسب ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ أخذه الله نكالًا في الدنيا حيث أغرقه باليم والبحر وهو ينادي: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

وأخذه الله في الآخرة بالعذاب والنكال، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر:٤٦]، فنكل به، ومزقه كل ممزق، وأزال مملكته، وأذهب دولته، وجعله عبرة للمعتبرين في الدنيا والآخرة، ولا يُذكر إلا بالذم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إن في قصة موسى مع فرعون ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ لعبرة وذكرى لمن يخشى ربه، فينظر إلى تمكين الله للمؤمنين ومكر الله بالكافرين، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأراضين، وأنه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود:١٠٢]، فأصبح ملك فرعون يبابًا بعد تكبره وتجبره، ومكن لموسى بعد ضعفه ومسكنته ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾ [آل عمران:١٦٠].

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قصة موسى وما فيها من العبر والتطمين لمحمد ﷺ، وما فيها من تهديد الكافرين الذين يتمردون على شرع الله قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ءَأَنتُمْ ﴾ يا معاشر من تكذبون بالبعث والنشور ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ ﴾، وهذا مثل قوله: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر:٥٧]، وقد قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس:٨١].

المراد بقوله: ﴿ أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ ﴾ بل السماء، العالية، المبنية بغير عمل، المزينة في هيئتها وشكلها أشد منكم خلقًا ومع ذلك ﴿ بَنَىٰهَا ﴾ أي: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ أعلاها ورفعها وجمَّلها وحصَّنها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الملك:٢-٤]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجر:١٦-١٧]، فهي مبنية على أتم وأكمل الهيئات، وسُمكها عظيم، فسُمك كل سماء خمسمائة عام كما جاء في الآثار.

﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أَيْ: جعل ليلها أسود مظلمًا حالكا، فإذا أظلم ليل السماء غطى الليل الأرض ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ جلاه وكان نيرًا واضحًا، فهذا أعظم من خلقكم يا معاشر الكفار الذين تكذبون بالبعث والنشور.

قال: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ يقول: والأرض التي أنتم عليها خلقها الله قبل السماوات، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [فصلت:٩-١١]، وتسخيرها للمعاش كان بعد ذلك، فهو يقول: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أَيْ: بعد رفع السماء ﴿ دَحَىٰهَآ ﴾، وهو قوله تعالى: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴾ إذ أنها قبل ذلك كانت عبارة عن

حجارة صماء وأتربة لا شيء فيها، فأخرج الله منها الماء العذب وسخر ما سخر، حتى أنبتت العشب وخرج منها الزرع، وما يدر به الضرع، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَدَحْيها أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى، وَشَقَّقَ فِيهَا الْأَنْهَارَ، وَجَعَلَ فِيهَا الْجِبَالَ وَالرِّمَالَ وَالسُّبُلَ وَالْآكَامَ(١).

﴿ وَمَرْعَىٰهَا ﴾ ما ترعى فيه الغنم: البقر والدواب، وهو شامل لكل أنواع الثمار والحبوب.

ومن دحوها أنه ثبتها بالجبال فقال: ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ وضعها عليها؛ حتى لا تتحرك أو تميد، حيث ثبتها بالجبال الرواسي العظيمة، وكل هذا التسخير ودحو الأرض: ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾، دوابكم من الخيل، والبغال، والإبل، والغنم، وهذا دليل على أن الأصل فيما سخره الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان الإباحة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية:١٣]، ألا يرشدكم هذا إلى وجوب طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والاستسلام والانقياد له؟!

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

وبعد أن قرر الله جَلَّجَلَالُهُ، عظيم قدرته بقرر المعاد، فيقول: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ أَيْ: إذا وقعت القيامة التي تطم الناس طمًا، وتغطيهم، ولا أحد يخرج منها، وسُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَطُمُّ عَلَى كُلِّ أَمْرٍ هَائِلٍ مُفْظِعٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ [القمر:٤٦](٢)، وهي من أسماء القيامة، الواقعة، والحاقة، والساعة، والقارعة.

فإذا جاءت الطامة وما فيها: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ أَيْ: حِينَئِذٍ يتذكرُ ابنُ آدَمَ جَمِيعَ عَمَلِهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، كَمَا قَالَ: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفجر:٢٣](٣).

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴾ أَيْ: قُرِّبت وأظهرت وجُليت، يراها الناس يحطم بعضها بعضًا، وسميت بالجحيم؛ لأنه شدة تأجج النار.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣١٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٣١٧).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/٣١٧).

وفي الموقف عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ** - يوم القيامة - **لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»(١)، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء:٩٠-٩١]، وحين يقول اليهود والنصارى: «**عَطِشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ**»(٢).

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ فأما من كان في هذه الدنيا طاغيًا مبارزًا لله بالمعصية، وأعظمها الشرك ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ قدم الدنيا على الآخرة، وتقديم الدنيا على الآخرة سبب للحرمان من أجر الآخرة كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠]، فعن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ**»(٣).

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ وهذا هو الكافر، ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ قرَّبها وعظَّمها وأحبَّها على الآخرة ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ هي المستقر، وبئس القرار، فلا يستطيع أن يجاوزها إلى غيرها.

يأكل من ضريعها، ويشرب من زقومها، وثيابه من نار كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحج:١٩-٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة:١٦٧].

ولما ذكر حال الكافرين بين حال المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ من المؤمنين الموحدين الطائعين لرب العالمين حيث خاف الله وراقبه، وعمل بمقتضى ذلك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، فالله عَزَّوَجَلَّ يُعبد بالخوف والرجاء والمحبة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وعند الموت ينبغي للمسلم أن يقدم الرجاء، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

(٢) متفق عليه، البخاري (٤٥٨١)، ومسلم (١٨٣)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والحديث في «الصحيح المسند» (١/ ١٧٤) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، يَقُولُ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ** عَزَّوَجَلَّ»(١)، وعَنْه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**»(٢)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي**»(٣)، وأما في الدنيا فقال بعضهم: ينبغي أن يقدم الخوف؛ حتى يكون زاجرًا له عن المعاصي والسيئات ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:٢٨]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ جاهد النفس وزجرها ومنعها ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ المخالف للحق؛ لأن الهوى في الغالب يأتي على خلاف الحق ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان:٤٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وسمي هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه في النار.

فيقول من خاف مقام ربه، وبادر بالطاعة والإنابة، وجاهد نفسه وزجرها عن اتباع هواه ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الجنة هي داره، وقراره وفيها «**مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(٤)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ**»(٥)، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**»(٦).

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أَيْ: الكفار، ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة، ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى هي؟، لا يعلم ذلك إلا الله كما قال النبي ﷺ حين سأله جبريل: «**مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»(٧)، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه:١٥]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٨).
(٣) متفق عليه، البخاري (٧٤٠٥)، مسلم (٢٦٧٥).
(٤) متفق عليه، البخاري (٣٢٤٤)، مسلم (٢٨٢٤)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٥) أخرجه مسلم (٢٨٣٦).
(٦) أخرجه مسلم (٢٨٣٧).
(٧) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ [الأعراف:١٨٧]، وقال: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب:٦٣].

ولو كان للناس مصلحة شرعية أو دنيوية في الإخبار بالساعة لربما أخبرهم الله بها، لكن لا مصلحة لهم بالإخبار عنها، وإنما دلهم الله على ما فيه لهم من المصالح، وأما وقت الساعة فيغيبه حتى عن أنبيائه ورسله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان:٣٤].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أَيْ: لست في شيء من علمها وقد أخرج ابن جرير في «تفسيره»[1]، وخرجه شيخنا مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أسباب النزول: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: لَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يَسْأَلُ عَنِ السَّاعَةِ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات:٤٤]. وله شاهد عند ابن جرير أيضًا، من طريق طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَزَالُ يَذْكُرُ شَأْنَ السَّاعَةِ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾ [النازعات:٤٢] إِلَى: ﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥].

والمعنى العام ما الذي ينفعك إن أخبرناك بموعدها؟ لا تنتفع بشيء، ولا عليك من ذكرها، وإنما خَوِّفْهُم بخروجها، ويجب عليهم الإيمان بوقوعها.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أَيْ: منتهى علمها إلى الله، فهو الذي يعلم متى تكون، ولا يعجزه شيء ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أَيْ: إنما عليك يا محمد، أن تنذر وتخوف من يخشى قيامها فيستجيب.

والساعة يومها شديد، كما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [المعارج:٤-١٠]، ويغضب الله في ذلك اليوم غضبًا، لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ أَيْ: الكفار المكذبين بها: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أَيْ: الساعة، ويعاينون وقوعها ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓا﴾ لم يمكثوا في هذه الحياة الدنيا وفي تلك القبور الخوالي وما فيها من الوحشة ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ من الظهر إلى المغرب ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ من الصبح إلى الظهر.

---

(١) برقم (٢٤/٩٩-١٠٠).

وهذا هو الواقع فعند قرب الموت يشعر الإنسان بأن السنين الكثيرة التي مكثها في الأرض زالت في لحظة عين، وعند البعث: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦ ﴾ [الروم:٥٦].

والحمد لله رب العالمين.